

الوادي في سيرة أعمور :

ملثّن ..

للأستاذ محمود الخفيف

- ١٠ -



تابع لسيرة كورس الغنائم :

وما إن تم العذراء أغنيها حتى يبدو كورس ، وقد طرب
لهذه الأغنية وعجب كيف ينبعث مثل هذا اللحن من صدر أحد
بنى القفاء ، وما يذكر أنه سمع لحنا مثله حتى ولا ذلك الذي كانت
تغنيه أمه مع عذارى البحر فتسبح الملاحين به عن أنفسهم ،
وتفرق سفنهم ؛ ويتقدم الساحر من الفتاة فيسألها من تكون فـ
يمكن أن يكون مثلها ممن ينتمون إلى هذه الغابة إلا أن تكون
هي إلهتها ، فهي تقيم فيها مع بان إله اربعة أو سلقان إله القاب ،
وترد الفتاة عليه وقد تمثل لها راعيا عليه سباه الورع والهدوء
قائلة إنها ماغنت غفيرة بلحنها ، إنما تستميل (إكو) عليها ترد عليها
من غيبتها . ويسألها الراعي ماذا أضلها ، فتجيب بأنه الظلام وهذه
التاهات الملتفة الأوراق ؛ فيستنبها أكان تركها بسبب عدم الوفاء
أم بسبب الجفاء ؟ فتقول إنما كان ذلك ليبحثا في الوادي عن

نبع سائح برود . ويعجب الراعي كيف يتركها على ضعفها
وليس معها من يحميها ، فتجيب أنهما أزمعا أن يعودا على عجل
ويقول ربما كان المائق الظلام ، فتجيب بقولها ما أسهل الحذر
عليها وهي فيما هي فيه من نفس ؛ ويسألها الراعي أيبكون قدما
أم عندها مما هي فيه من حاجة إلى معين ، فتنبه أنهما أخوها
ويستفهمها أوصافهما ، فـا تجيبه حتى يقول إنه رأى اثنين كـ
وصفت عند تل قريب ، وأنه أكبرهما أن يكونا من بنى الإنسان
وحسبهما من تلك الخلائق السبوية التي تعيش في ألوان قوس
النعام وتلب فوق السحب المشتبك بعضها ببعض ، وقد أخذ
خوف منهما فصل إذ مر بهما ، فان كان هذان من تبحث عنهم
فان رحلة أشبه بالارتحال إلى السموات تصل بها إليهما .

وتسأل الفتاة عن أقرب السبل إلى ذلك فيقول إنه يقع صوب
النرب من أجرة أشار إليها ؛ وتبدى الفتاة خوفها وقلة حيلها ، فأز
التنفل في الغابة فيما يرسله النجم من ضوء قليل أمر يشق على أمر
هداة السبل . ويعرض الراعي عليها أن يهديها أو أن يسير بها
إلى كوخ متواضع ولكنه أمين ؛ وتقبل الفتاة ما يعرض قائلة
إن الرقن الذي يديه إنما يوجد في الأكوخ المسقوفة بتلك
الأخشاب السوداء بالدخان أكثر مما يوجد في الأبهاء الزدانة من
قصور الأمراء ؛ ثم تتجه إلى السماء مستيضة ، وتتردد بصرها
ملتفتة إلى الراعي قائلة : دونك أيها الراعي فاهدني السبل ...

ويظهر على المسرح بعد ذلك الأخوان فيناجي أكبرهما القمر
والنجوم مستيذا بنورها ، أو متلهفا إن لم تجبه الكواكب إلى
بصيص من الضوء ينبعث من كوخ . ويقول الآخر إنه يرهف
سمعه على يصيب صوت قطيع ينبعث من حظيرة أو زمارة راع
أوصياح ديك بعد ساعات الليل ؛ ثم يعلن أسفه على أخته العذراء
الضعيفة ويسأل ترى أين أنت يا أختاه ! ربما كنت مستلقية
على ضفة باردة رطبة أو مستندة جسمك الواهن من الحزن والخوف
إلى جذع خشن ، وقد نال منك الجوع والحر . ويعود أكبر
الأخوين فيدعو أخاه إلى الهدوء والصبر ، ويقول له إنه لا يخلق
بالمرء أن يقدر السوء وأن يستعجل بالشر ، وأنه لا يظن أن الخطر
أحدق بأخته فتثنها من لا يزلزل هدوءها الظلام والسكون لأنها
متمسكة بالفضيلة . ويترسل الأخ الأكبر في امتداح الغزلة ،
ويذكر كيف تربش الحكمة فيها جناحها بالتأمل ، ويقول إن

ويطرق سمع الأخوين صوت فينعتان ويتدران أنه إما أن يكون صوت ضال مثلهما أو صوت لص يدعو منسره؛ ويسأل الله أصفرهما لأختهما السلامة والنجاة ، ويتأهب أكبرهما للدفاع ، ويستنجد السماء له ولأخيه ...

ويظهر عقب ذلك الروح الحارس في زى أحد الرعاة فيظنه الأخوان راغياً يعرفانه من رعاة أبيهما ، ويسألانه ما خطبه ، وهل فقد من غنمه شيئاً ، فهو يبحث عنه ، ويخبرهما أن الأمر أخطر مما يظنان ، ثم يسأل عن أختهما فينبأ أنه أتتهما تركاها قليلاً وعادا فلم يجدها ، فيطلمعهما على مخاوفه وهواجسه ، فيسألانه أن يفصح فيقص عليهما ما علمه عن كومنس وقبيله وما برع فيه من السحر ، ويصف ما يعيشون في الغابة من جلبة وضوضاء ، ثم يقول : قد سمعت أغنية حلوة يرتفع بها صوت رفيق ملؤه الخشوع يسرى فوق متن الهواء كما تسرى نفحات المطر المقطر ، صوت بات الصمت ذاته حياله كالأخوذ عن نفسه ، حتى لقد ود لو أنكر ذاته وذهب إلى غير عودة إذا كان صوت كهذا يحمل عمله ... وأرهفت أذني استمع فتبينت أنه صوت سيدتي أختك الحبيبة ، فضيت لتوى صوب الصوت ولكنني أقيت ذلك الساحر اللعين قد أدركها قبل أن أصل وظهر لها في لباس قروى وهي تسأله عن اثنين تاهتا في ظلمات الغابة ؛ فاستخلصت أنها تسأل عنكما تحفت ابحت في النابة حتى لقيتكما هنا ، ولست أعلم ما ذا كان من أمر الفتاة بعد ذلك .

ويجزع أصفر الأخوين مشفقاً على أخته ؛ أما أكبرهما فيظل على يقينه وثقته في الفضيلة والاعتصام بها ، فقد تهاجم الفضيلة ولكنها لا تغلب ، وتباغتها القوة الظالمة ولكنها لا ترزعها ؛ وأن ما يريده السوء من خطر جسم يصبح إذا امتحنت به الفضيلة أعظم دواعي الفخر . ولا بد من أن يرتد الشر فينطوى على نفسه فهو من نفسه يفت ثم إنه يأكل نفسه .. ويعلن الفتى عزمه على مقاتلة ذلك الساحر حتى يرد ما اقتنص وهو ساغر أو يجره من ذوائبه إلى ميتة كريهة فيذهب لعيناً كما لعنت حياته ؛ ولكن الروح الحارس أو الراعي يرد عليه بأن شجاعته هذه وإن كان يكبرها لن تجدى عنه شيئاً فذلك الساحر قادر على أن يشل سحره مفاسله ويثلف كل عضلة في جسمه ؛ ويتمجب الفتى

من يحمل بين جنبيه نفساً مضبئة يستمتع بالنور وإن كان في قاع الظلمة ، وإن من ينطوى على نفس مظلمة وأفكار سوء فانه يكون في مثل حلقة الليل ، وإن مشى في شمس الظهيرة فهو من نفسه في جب . ويلوح أن ملتين يشير هنا على لسان التكلم إلى عزله هو في هورتون وطلبه الحكمة والمعرفة لتستضي بهما نفسه .

ويرد أصفر الأخوين بقوله إن الزاهد لا يمس في عزله أحد ولا يطعم في توافه أحد ، ولا يريد رأسه الأشيب أحد بسوء ، ولكن أخرى بالجمال وهو أشبه بشجرة التفاح الذهبي أن يقوم على حراسته نين . وكيف يطمئن قلبك على عذراء لا حول لها تحبب في ظلام الغابة ؟ إنك إذن كمن يلتقي بكثرة بخيل لدى باب أحد اللصوص ثم يطمئن على سلامته . وما أخشى على أختنا من الظلام والوحشة وإنما أخشى مما يجراه عليها من اعتداء وقاح تطعمه وحشيتها .

ويعود أكبرهما فيذكر لأخيه أنه لا يتكلم عن سلامة أختها كلام الواثق ، ولكنه إن وجد نفسه بين الخوف والأمل فانه يفضل أن يميل إلى الأمل . ثم يقول إن أخته ليست كما يتصور أخوه لا حول لها قط ، فان لديها قوة خفية لا يتذكرها أخوه ، ويسأله أخوه متعجباً ما تلك القوة إلا إذا كان يقصد قوة الله ، فيجيب إنه يقصد قوة الله إلى جانب قوة أخرى وهما الله إياها فصارت قوتها هي ، ويعني بها العفة . ثم يستطرد قائلاً العفة يا أخى العفة ، ويقرر أن من تتدرب بها لا تخاف شيئاً ولن يستطيع أن يبلط طهرها أحد . ويسأل أخاه أيؤمن بهذا الذي يقول ؟ فان كان لا يؤمن به فانه يبيد على سمعه ما ذكره الأقدمون من الأغريق عن قوة العفة ؛ ويذكره بقصة ديانا آلهة القمر والصيد وقوسها وسهامها وعفتها التي هابها الآلهة والملوك .

ثم يذكر مينرفا آلهة الحكمة ، وما كانت مينرفا تحول إلى مثل الحجارة الباردة إلا بنظراتها الناطقة بقوة العفة ، ويستمرسل في قوله فيذكر أن النفس إذا اعتنقت العفة في إخلاص ، أحيطت بألف من الملائكة يدراون عنها كل ما هو بسبب من الذنوب والخطيئة ، ويصلونها بالسماء فتسمع ما لا تسمع غيرها من الآذان . وفي هذا الوضع من الثنائية يطلب « ملتن » على لسان أحد الأخوين في بيان فضل العفة كما امتدح من قبل العزلة وطلب الحكمة .

الذى تشربه إذ تطعم على مائدتها ما تناولته من يدك الخائنة
إنه لن يعطى الطيبات من الأشياء إلا الطيبون ، ولن تسيء
الحيث نفس عاقلة تضبطها الحكمة .

ويعلم كومنس عجيبة من حماقة بنى الإنسان وتصديقههم كلا
الفلاسفة فى القناعة والزهد ؛ ولم تخرج الطبيعة إذن كنوزهم
ونارها وزينتها إن لم يك ذلك لتدخل بها السرور على الأنفس
المتطلعة إلى كل معجب جميل ، وما غناء الحرير والذهب الذى
يعبده الناس جميعاً وغيرهما من الجواهر ؟ إن الإنسان إذا قد
بالتافه من الطعام والشراب والخشن من الثياب لم يعرف أنعم الله
ولم يشكره ؛ وأن تذهب تلك الأنعم إذا تراكت بعضها قوفاً
بعض زهد الناس فيها ؟ وبهيب الساحر بالعدراء ألا تحدد نفس
بتلك الكلمة الجوفاء ألا وهى العفاف ؛ فإن الجلال لا يكتر وإلا
يجب أن تناوله الأيدي ؛ وإذا تصرمت الأيام ذوى كما تذوى
الوردة فى عودها . والجمال نثار الطبيعة ، ولذلك يجب أن يعار
فى القصور والولائم وعظيم الحفلات حيث يتدبر الناس فى عجبهم
صنعه ؛ ويختم الساحر كلامه بأن يدعو الفتاة إلى التفكير فيما يقبوا
فهى فى زمن الشباب ...

وترد عليه المذراء قائلة : ما تصورت من قبل أن تنفجر
شفتاى بالكلام فى جو كره كهذا الجو ، ولكن ما الحيلة وهذا
الساحر بدلس على رأى ويظن أنه قادر على أن يسحر فكرى
كما سحر عيني فأتى بكلام زائف يلبسه لباس العقل ؛ وإني
لأكره أن تتمكن الرذيلة من أن تدلى بحججها ولا يكون
للفضيلة لسان يصد نبججها . أيها المخادع لا تهتم الطبيعة البريت
كما لو كانت تريد أن تثبت فى قلوب بنينا الزهو والخيلاء بما تفيض
عليهم من كنوزها . إنها ما تخرج خيراتها إلا للطيبين الذين
يمشون وفق قوانينها الحكيمة ، ويسرون حسب ما يقتضيا
الاعتدال . ولئن أتيت لكل رجل ممن أمنتهم الفاقة قدر بسيط
لائق به مما جعلته الأبهة والترف ركما بعضها فوق بعض فى أيد
قليلة ، فإن أنعم الطبيعة بذلك توزع فى عدالة ، وعندئذ فلا تلتف
فى خزائنها ، وعلى ذلك يكون شكر المتفضل المنعم قد أدته كل
نفس . ألا إن النعم لا يتجه إلى السماء ومن حوله ما تمتلئ به
مائده الفخمة ، ولكنه بضيف إلى نهمه كفرانه بالنعمة ، ذلك

وسأله كيف تجرؤ إذن على أن يدنو من الساحر كما فعل ؟ فيظهره
الراعى على سر ، وذلك أن صنيعة من الرعاة دله على نبات يكشف
السحر ويأمن به من غوائل السحرة ويفرح بذلك الإخوان ،
ويعتزمان لقاء الساحر وكسر زجاجته وقهره .

ويتغير النظر على المسرح ، فإذا بجانب من قصر عظيم
يتبدى للأعين وقد صفت فيه الموائد المنقطة بالأقنعة الموشاة ،
وزخر بأعماط الزينة وترقرق فيه لحن موسيقى هادى . ويجلس
العدراء على كرمى مسجور ، ويظهر كومنس وقبيله فيمد إليها
يده بكأس ، فتأخذها ولكنها تغمها جانباً وتهتم بالوقوف ،
فيأمرها الساحر أن تجلس ، فانه إن هز عصاه أحلها إلى تنال من
المرص أو صنع بها كما صنع أبولو^(١) بدافنى ؟ وترد العذراء عليه
منضبة بقولها لا تفخر أيها الأحق ، إنك إن استطعت أن تسيطر
بسحرك على جسمى فلن تنال من حرية عقلى بكل ما أوتيت
من السحر .

ويتفرق الساحر فى قوله ، ويحاول إغراءها بأن تشرب من
كأسه ، وألا تنضب ، وأن تنقى عن نفسها الهمة ، فى ذلك القصر
لا يعرف الحزن وهذا الشراب الذى تحتويه الكأس يملأ النفس
حبوراً وقوة وشباباً . ولن يبلغ مبلغه فى هذا السبيل ذلك
الشراب الذى أعطته فى مصر زوجة ثون لهيلينا^(٢) ابنة جوف ؛
وما أحوج المذراء إليه كما يحتاج كل امرئ إلى ما ينعشه بعد
النصب ويريجحه بعد البلاء ، وقد مسحها التعب والجوع ، وهذا
الشراب يدرا عنها ذلك جميعاً ، وتصيح به الفتاة : إنه لن يفعل
أيها الكذوب الخائن ، وإنه لن يرد إلى لسانك ما نفيته عنه
بكذبك من الصدق والأمانة . أهذا هو الكوخ الأمين الذى
حدثتنى عنه ؟ وما هذه الأشباح المنكرة التى أرى ؟ هذه الشياطين
القييحة الرؤوس ! يارحمة الله احرسينى ... اذهب عني بسحرك
أيها الساحر البغيض ، لو كان ما تقدمه لى كأساً من شراب جونو^(٣)

(١) أحب أبولو إله الشعر والموسيقى هذه المذراء وتبعها فلانم تمل
إليه أحالها إلى شجرة من شجرة الفار .

(٢) جاء فى الأوديسة أن هيلينا ابنة زيوس (جوف) وزوجة مينالوس
الأسيرطى وصفت لزاثيرمى زوجها هذا الشراب الذى يملأ النفس مسها وقوة
وكانت أعطتها إياه فى مصر بوليديمانا زوجة ثون .

(٣) جونو زوجة جوبتر أوزيروس كبير الآلهة وملكة السماء .